

الخلافة الإلهية والخلافة الشيطانية

<"xml encoding="UTF-8?">



على الرغم من أنّ فطرة الإنسان تسوقه نحو الخلافة الإلهية إلا أنّ طبيعة النزوع إلى الحس وحب الراحة والرفاهية تجعله يتهرّب ويبتعد عن جهة خلافة الله ويميل نحو جهة خلافة الشيطان.

فإذا ما تزّين بالحقّ والصدق والصلاح بطاعته وأوامر العقل والوحي، فإنّه ينال مقام خليفة الله، وإذا ما تبع وسوسة إبليس واغواءه فتلوّث وتدنّس بالباطل والكذب والقبيح فإنّه يتسافل إلى مقام حقير ذليل ليمسي خليفة الشيطان.

ويصنّف القرآن الكريم هاتين الطائفتين إلى {حِزْبُ اللَّهِ} (المجادلة/22)، و {حِزْبُ الشَّيْطَانِ}. (المجادلة/19)

وكما أنّ خليفة الله يبلغ قرب النوافل في ظلّ العناية الإلهية، ويتكفّل الله سبحانه - في مقام الفعل - نشاط أعضائه وقواه الإدراكية والتحريكية، فيظهر مثلاً في قوّته الباصرة فهو ينظر بعين إلهية وهكذا...، وخليفة إبليس أيضاً بسبب غبار الغواية وظلمات الوسوسة يتقرّب إليه ويدنو منه بحيث يتكفّل إبليس بجميع مظاهره العلمية والعملية.

ويمكن أن نرى مثلاً لهذا الاستخلاف الكاذب والخلافة الباطلة في حديث نوراني لواحد من أعظم الخلفاء الإلهيين ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: «اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَكَاً فَبَاصَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعَلَ مَنْ قَدْ شَرِكُهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ». (نهج البلاغة/57، من خطبة له يذم فيها أتباع الشيطان)

وخلاصة هذا الكلام العلويّ هو تسلّل إبليس إلى حريم القلب بحيث يبني العشّ فيه ويقوم بالتكاثر الحرام وإلقاء

البیوض فيه وتربيتها لتففس فراخاً شیطانیة في قلوب المغرورین والمخدوعین فتُمكّن إبلیس من امتطائهم واستعبادهم والاستبداد بهم حتی یصبح هؤلاء عین الشیطان ولسانه فیقوم إبلیس بالنظر بأعینهم والتکلم بألسنة المغرورین، وهذه هی الإستنابة، التي معناها ان یقوم الشخص بأعماله بالتسبیب، وبالنحو الذي یكون فيه إبلیس احياناً عین وأذن ولسان الإنسان المفسد بحيث أنه یبصر ویسمع یتکلم بوسائل الشیطان، وتارة تكون القوى الادراکیة والتحریکیة للفاسق تحت تصرف إبلیس کی یقوم عن طریقها ببث ما لديه من أقاویل کاذبة وباطلة وقبیحة إلى أتباعه ومستمعيه.

وفي الحالین فإنّ مثل هذا المفسد المبتلى بالبطلان والکذب والقبح قد تدنّس بخلافة إبلیس، وتبلور جمیع ما لديه من جزم علمي وعزم عمليّ طبقاً لفکر وهدف المستخلف عنه أي الشیطان {کُلُّ یَعْمَلُ عَلَی شَاکِلَتِهِ}. (الإسراء / 84)

وکما انّ الخلافة الالهیة شجرة طوبی تؤتی ثمرأ طیباً، فإنّ الخلافة الشیطانیة شجرة خبیثة تنتج تمرأ خبیثاً، لأنّ خبث الثمار نتیجة حتمیة لخبث الشجر، كما أنّ طیب الثمرة نتیجة قطعیة لطهارة الشجرة.

وعندما یأتي فرد متهورّ فیوجّه إلى الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام سؤالاً غیر مناسب فإنّه یجیبه علیه السلام فیقول: «... لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا فَإِنَّهَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ» (نهج البلاغة/306)، أي إن المتکلم بهذا الکلام الباطل هو الشیطان ولکنّه تحدّث بلسانک، وهذا العمل التسبیبيّ یرجع إلى استخلاف واستنابة الشیطان، لأنّ النيابة والخلافة تحصل تارة بأن یكون الشیطان مجری واداة وواسطة لعمل المفسد، واخرى بان یكون المفسد طریقاً لتحقيق أهداف إبلیس، والتغاير في العنوان والاختلاف في التعبير لا دخل له في اصل المعنی، وإذا کان القرآن الکریم قد وصف بعض الغاوین والمنحرفین بأنهم: {شَیَاطِیْنِ الْإِنْسِ}، فلعلّ ذلك بسبب أنّ الارتباط الخاص بین الخلیفة والمستخلف عنه یجعله ینسب إلى المستخلف عنه.

أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسیئات أعمالنا وجعل خاتمة أمورنا خیراً یرضاه ویرضی خلفاءه.

طریق الخلافة عن المعصومین علیهم السلام

انّ درجات کمال الإنسان الکامل ومقاماته من ناحية الموهبة والکسب لیست متساوية، لان بعضها یحصل فقط عن طریق الموهبة الالهیة ولا یأتي عن طریق الاکتساب ابدأ كالنبوة التشريعية والرسالة والإمامة حسب قوله تعالی: {اللّٰهُ أَعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} الذي یدل علی أنّ بلوغ هذا المقام التشريعی غیر ممکن إلاّ بالموهبة الالهیة، ولا أحد یقوی علی کسب هذا المقام عن طریق تحصیل العلم وتهذیب النفس.

وبعضها فضلاً عن حصوله بالموهبة الالهیة، فإنّه یأتي أيضاً عن طریق تحصیل والکسب الاختیاريّ. ویعتمد هذا النحو من الکمال الاکتسابي في شدّته وضعفه علی مقدار العمل الصالح ودرجة الاخلاص فيه أي بانضمام الحُسن الفعليّ إلى الحُسن الفاعليّ.

والخلافة عن المعصومين وبلوغ الأفراد الصالحين درجة المظهرية لظهور انواع كمال تلك الذوات المقدسة هي من سنخ الكمالات الكسبية، أي أنه يمكن عن طريق تحصيل العلوم الإلهية التي تلقاها أولئك الطيبون الأطهار من الله وعملوا بها وقاموا بتعليمها وتبليغها، وبواسطة تذكية العقل النظري وتزكية العقل العملي والتضحية بالنفس بما يتناسب مع مستواه، أن يكون الإنسان نائباً وخليفة عن تلك الذوات المقدسة فينشر ويبلغ - نيابة عنهم - شؤونهم العلمية والعملية في ظلّ الجهاد الأصغر والأوسط والأكبر وفي ضوء الفقه والاجتهاد الأصغر والأوسط والأكبر.

ان الطرق الابتدائية والتمارين الخفيفة والقصيرة فيها تبدأ من النيابة عن تلك الذوات النورانية في العبادات والأعمال القربية التي يشترط فيها أولاً: صحتها، ثانياً: كونها قابلة للنيابة عنهم، وثالثاً: ثبوت صحة النيابة فيها عن المعصومين عليهم السلام، وبعد ذلك تظهر صبغة وآثار الخلافة عنهم تدريجياً، فيجد الإنسان المتحلّي بالتقوى والمتخلّي عن الهوى والمتّصف بالعلم والعدل، نفسه نائباً عنهم.

ومن الممكن أن يبدأ السالك المشتاق إلى النيابة - لأجل بلوغ المقام الشامخ لخلافة المعصوم - من اهداء الثواب، لا النيابة، وبعد مدة ينتقل من اهداء الثواب إلى النيابة ويستمر في التقدّم على هذا المنوال.

ويمكن ان نرى مثلاً على هذا التمرين العملي في النيابة عن المعصومين عليهم السلام في طواف الكعبة. فقد روى علي بن مهزيار عن موسى بن القاسم انه قال: - قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام محمد بن علي الجواد): قد اردت أن اطوف عنك وعن أبيك، فقل لي: «إنّ الأوصياء لا يطاف عنهم»، فقال: «بلى، طف ما أمكنك، فإنّ ذلك جائز».

ثمّ قلت له بعد ذلك بثلاث سنين: أنّي كنت استأذنتك في الطواف عنك وعن أبيك، فأذنت لي في ذلك فطفت عنكما ما شاء الله، وثمّ وقع في قلبي شيء فعملت به، قال: «وما هو؟»، قلت: طفت يوماً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال ثلاث مرات: «صلّى الله على رسول الله»، ثمّ اليوم الثاني عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ طفت اليوم الثالث عن الحسن عليه السلام، ثم طفت اليوم الرابع عن الحسين عليه السلام، والخامس عن علي بن الحسين،، واليوم السادس عن ابي جعفر محمد بن علي عليه السلام، واليوم السابع عن جعفر بن محمد عليه السلام، واليوم الثامن عن ابيك موسى عليه السلام، واليوم التاسع عن ابيك علي عليه السلام، واليوم العاشر عنك يا سيدي، وهؤلاء الذين أدين الله بولايتهم، فقال: «أذن والله تدين الله بالدين الذي لا يقبل من العباد غيره»، فقلت: وربّما طفت عن أمّك فاطمة عليها، وربما لم أطف، فقال: «استكثر من هذا، فإنّه أفضل ما أنت عامله إن شاء الله».

والنيابة عن المعصوم عليه السلام في الطواف مذكورة أيضاً في مواضع اخرى، كما أنّ النيابة عن الإمام في الحج، والعمرة وعتق الرقبة ايضاً كالنيابة عنه في الطواف مشروعة بل هي من الأمور التي ورد الحثّ عليها في كتب الروايات، ولا فرق بين المعصوم الحيّ والمعصوم الراحل في هذا المجال.

وانّ صحابة الأئمة الأطهار كانوا يبادرون إلى ذلك العمل الراجح في حضور الأئمة، فكان ذلك يلقي ترحيباً منهم.

وخلاصة القول هي أنّ بلوغ المقام السامي للخلافة الإلهية بحاجة إلى تمارين كثيرة تبدأ من اهداء الثواب والنيابة

التبرعية، وتتصاعد إلى المراحل العليا حيث العقبات الكؤودة الشديدة في الإخلاص أربعين يوماً وأمثالها، هنالك يبدأ الاستعداد لظهور فيض الخلافة وتفتح ازهار فوز الولاية.

عند ذلك يختار المبدأ الفاعلي طبقاً لمشيئته الحكيمة من يحبه ويكرمه فيجعله خليفة للمعصوم.